

يفضح حال عافيته وإن كان لا يزال يحتفظ على الرغم من بلوغه الثالثة والسبعين بأناقة النبلاء. غير أنه ذاك الصباح، كان مجرد الحس من أي شعور بالزهد. فسنوات المجد والسلطة كانت قد تقَعّرت في الماضي إلى الأبد، ولم يعد أمامه سوى سنوات الموت.

كان قد عاد مجدّداً إلى جنيف عقب حربين عالميتين إلتماساً لتشخيص طبي حاسم حول وجع لم يفلح أطباء المارتنيك في تعيين أسبابه. وقد ملأه الظن أن هذا لن يستغرق منه على أبعد تقدير أكثر من خمسة عشر يوماً، لكنه لبث يتنقل بين فحوص طبيّة مُضنية، ونتائج مخبرية غير مؤكدة مدة ستة أسابيع من غير أن يستشفّ لذلك نهاية. كان الأطباء يطاردون الوجع في الكبد والكلّى والبنكرياس والبروستات وفي أعضائه كافة ما خلا الموضع الذي كان يسكن فيه. إلى أن عيّن له طبيب هو أدنى شهرة ممن سبق أن عاينه من الأطباء، موعداً في التاسعة من صباح ذاك الخميس المقيت في قسم الأمراض العصبية. كانت العيادة أشبه بصومعة ناسك، وكان الطبيب المكروب قصير القامة يلفّ يده اليمنى بالجصّ لكسر في إبهامه. حين أطفأ النور لاحت على الشاشة صورة اشعاعية ساطعة لعمود فقري لم يتبين أنّه له إلاّ حين أشار الطبيب بعصاه إلى تقاطع فقرتين في أسفل قطمه.

من هنا منشأ وجعك، قال. بالنسبة إليه، لم يكن ثمة أشد لبساً من ذلك، فقد كان وجعه فائق الوصف ومتباعداً. يستقر تارة في جنبه الأيمن وطوراً في أسفل البطن، وغالباً ما كان يباغته بنعرة